فرج نجم:

عمر المختار بين جدلية الرمز والرمزية

إذا ما حدقنا النظر في الأمم الكبيرة من حولنا لرأينا لها رموزًا عايشتها، وبعض هذه الأمم لازالت تعيش في كنف هذه الرموز الحية طلبًا للسلامة والاستئناس لما لهذه الرموز، التي توصف في بعض الأحيان بـ الأسطورة، من جسامة التأثير على العقل الباطني للإنسان، كغاندي في الهند، ومانديلا في جنوب أفريقيا، والدالاي لاما في التبيت، حتى أن الشاعر الفرنسي، باتريس دولاتور دوبان، قال: **الشعب الذي لا أساطير له يموت من البرد**، وهذه الرموز اجتمعت فيها عدة محركات، فامتزج فيها الدين بالتاريخ، والرجاء بالواقع، والتمني بالممكن، لهذا وجد الليبيون في اتخاذ عمر المختار رمزًا لهذا الوطن عن جدارة السلوى، الذي جسد لهم ضروب الرجولة في فرسان من حوله عشقوا الشهادة وسطروا الملاحم والأساطير التي توارثها الآباء والأبناء، فكانت محنهم مقياسًا لكل قاص ودان، وعلمونا بأن من تعلم كيف يموت، سينسى معنى العبودية، ومعرفتنا بكيف نموت، تحررنا من كل خضوع وقيود، وأن الخضوع الروحي لأمة أخرى، هو أشر أنواع الاستعمار.

لذا يتسأل المرء لما هذا الولع بهذا الرمز أو ذاك دون غيره من قبل العامة والساسة بمختلف مشاربهم ومدارسهم الأيدلوجية، ولهذا نحتاج إلى وقفة مع مفهوم الرمزية وجدليتها.. ولماذا أصبح عمر المختار تحديدًا رمزًا للوطن وما بعده ؟

سبق وأن دُعيت من قبل دار الحكمة البحرانية في شهر محرم في إحدى آخر سنوات التسعينيات التي خلت، حيث يحتفل الشيعة بذكرى استشهاد الحسين بن علي، وطُلب مني أن أتحدث بالمناسبة عن مفهوم وأبعاد الاستشهاد عند عمر المختار. وبعد المحاضرة جاءني الصديق الذي قدمني ليقول لي: "يا ليت ـ نحن البحارنة ـ عندنا شهيد مثل عمر المختار لنحتفل به كما نحتفل مع بقية إخواننا (الشيعة خاصة) بذكرى استشهاد الحسين".

توقفت عند ذلك لأتأمل معاني تلك الكلمات، وتأثير عمر المختار عبر الفيلم الذي أشهره في الأصقاع، وقلت للنفس إن عمر المختار رمز تجاوز الحدود والمذاهب والأيدلوجيات السياسية. حتى إن بعض القوميين العرب شبه وقوع صدام حسين في الأسر بوقوع عمر المختار في الأسر، فاحتج الدكتور إبراهيم الجعفري (الذي أصبح لاحقًا رئيسًا لوزراء العراق) على هكذا مقارنة، معللاً بأن عمر المختار دخل قلوب المسلمين، واستحوذ عليها. فيا ترى لماذا غدا عمر المختار رمزًا ؟

امتاز عمر المختار عن غيره من المجاهدين، ومن ثم الشهداء بأنه ألهب مشاعر الليبيين والعرب والمسلمين والإنسانية بمظلوميته بالدرجة الأولى. ثم إنه جسد الصمود والتحدي والصبر على الرغم من المعاناة التي تجشمها، وكان يعيشها واقعًا مريرًا بين إخوانه المجاهدين والأهالي الذين زج بهم في المعتقلات والسجون، ناهيك عمن وري الثرى صابرًا محتسبًا. ومع هذا كله بقي عمر المختار شامخًا يرفع أسمى معاني الكرامة والأنفة في وجه الظلم والاستبداد، وهو بذلك ينقل لنا صوت من فُقد صوته في أزيز المعارك، أو خلف الأسلاك الشائكة ممن بقى في صدره شيء من النفس. وفي الصدد نفسه قيل أن أحد مشايخ قبيلة البراعصة بعد استشهاد عمر المختار جاءه المتصرف الإيطالي يسأله عما يحتاجه هو ورهطه فطلب منه شيء أزعج الحاكم الفاشي عندما قال: لا نريد شيئًا إلا أكفان بيضاء فقط، فإننا نحن معشر المسلمين نكرم أمواتنا بدفنهم بعد الموت، ونحن قد قررنا الموت لأننا لا نستطيع العيش في هكذا ذل وهوان. فانصرف ذلك المتغطرس بنشوة نصره، ولا يدري أنه في حقيقة الأمر يجرجر خلفه خيبة نصره الموهوم. وأمر على الفور بأن يؤتى بالدقيق والماء وما لزم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من البدو من الموت.

وباستشهاد عمر المختار بالطريقة والصورة التي قررتها إيطاليا تكون قد جعلت منه رمزًا لنا، والمقصود بـ "لنا" كل من يرى في نفسه أنه قد أصابها شيء من العنت والظلم والإساءة، وهذا لم يقتصر على الوطن، وإنما تجاوز ذلك الحدود القطرية، ولكن يبقى عمر المختار باستشهاده رمزًا للوطن.

مفهوم الرمز والرمزية

وفي مفهوم الرمز والرمزية كتبت الباحثة السعودية الدكتورة مضاوي الرشيد طرحًا اقتبس منه ما يفسر بعض ما أرنو إليه وهو أن: "دراسات الرمز والرمزية تفتح المجال للخوض في ماهية ما يسمي بالرمز وهو بتعريفه البسيط يدل على شيء غير ذاته ومعنى يتضمن كل أو بعض خصوصياته، ومن

أهم خصائص الرمز أن تشترك في صنع معناه شريحة كبيرة من المجتمع ويتقبله طيف كبير من البشر. كذلك من خصائص الرمز أن يكون بعيدًا عن التشكيك، أي أن يكون متفقًا عليه.

لنأخذ مثلاً كيف أن الأسد رمز للقوة، والثعلب رمز للمؤامرة والخيانة، والسيف رمز للقوة، والتاج رمز للاستقلالية. وتستعمل هذه الرموز من الحيوانات والأشياء للدلالة على المعاني المختلفة، فنطلق صفة الأسد على الرجل الشجاع، والثعلب على المراوغ الذي ينسج المؤامرة في الخفاء، وتلبس ملكة بريطانيا تاجها على رأسها لترمز لاستقلاليتها واستقلال دولتها وهلم جرا. وبالإضافة إلى هذه الرموز تستعمل المجتمعات الألوان لترمز لمعان كثيرة فالأسود رمز للموت، والأحمر للخطر والدماء، والأبيض للسلام. تبقي هذه الرموز محصورة في بيئة محدودة إلى أن يعمم معناها ويشترك في فهمها الكثيرون، ويتفق عليها الجميع، ويفهم المجتمع الدولي أن رفع العلم الأبيض هو طلب للسلام أو الاستسلام، والمهم في الموضوع هو الاتفاق على المعنى؛ ولولا هذا الاتفاق يبقى الرمز محصورًا في بيئة ضيقة ولا يعمم مفهومه على الجميع". [1]

ومن هنا فإن العلاقة بين الرمز (عمر المختار الذي تم الاتفاق على شخصه)، والوحدة الوطنية أمر ضروري، وأن بقاء الرمز سبب رئيس للوحدة الوطنية، وهنا لا بد أن نسلط الضوء على هذه العلاقة، لأنه ليس ثمة بيننا من يشكك علنًا ـ على الأقل ـ في "قدسية" عمر المختار على تنوع خلفياتنا المعيشية حضر كنا أم بادية، وقبائلنا (عبيدي، ورشفاني، جبالي، أولاد علي أو سليمان، حطماني، فاخري، أو غرياني... الخ). ومناطقنا سواء في طرابلس وبرقة وفزان، أو في المهاجر، وخلفياتنا الطرقية (سنوسي، مدني، عروسي، عيساوي... إلخ)، أو حتى الأيديولوجيات السياسية.

إذن عمر المختار كان اتفاقًا بين فرقاء الوطن لأسباب ستأتي، وإن ربط الوحدة الوطنية برمز بشري حي يرزق مستحيلة، ولم تكن محل اتفاق، ولم تكن مقبولةً لأن البشر زائلون والوطن يبقى، ولذلك عندما انتفت وجود بشرية عمر المختار، وأصبح في عالم الشهداء ـ أي ماديًا غير موجود بيننا ـ أصبح رمزًا لحقب تاريخية ستأتي لاحقًا بعد زواله من دنيانا الزائلة، لحاجتنا الماسة إلى رمز نستلهم منه النضال والاستمرار لتخليص العباد والبلاد من مأزق كاد أن يؤدي بنا جميعًا إلى التهلكة لولا فضل الله علينا، وإصرار وعزيمة الآباء والأجداد على النصر.

(1) راجع: مضاوي الرشيد، مقالة بعنوان: هناك معضلات في اعتبار العائلة المالكة رمزًا وطنيًا، جريدة القدس العربي بتاريخ *2005/03/21*.

فمكانة الشهيد والمكان ستبقى .. أما البشر فهم حالة طارئة مرتبطة بحقبة تاريخية تعتبر قصيرة في تاريخ أي شعب. كما أثبتت الأحداث المتتالية خلال أكثر من سبعة عقود أن هذا الرمز كان عامل وحدة، بل عامل محرك للمجتمع حين اتبع سياسة فئوية على صعيد المناطق والجماعات التقليدية كالقبيلة مثلاً، والحديثة كالنخب الثقافية الجديدة التي أفرزتها التنمية والتعليم منذ منتصف القرن العشرين. فعمر المختار الرمز استطاع أن يوحدنا بعدما تفرقنا قبليًا ومناطقيًا ونخب اجتماعية، وكل من اتخذ موقفًا صريحًا وواضحًا بقبول هذا الرمز. وهذا الرمز الذي اختزل روح المجاهد والشهيد في الوطن وخارجه هيمن على كل مرافق الحياة والمؤسسات سواء كانت الرسمية أو المدنية كأندية الثقافة، والرياضة، والصحافة، وغيرها بالإضافة إلى المؤسسات الخيرية.

لماذا عمر المختار رمزا

اتفق الليبيون على عمر المختار رمزًا لأسباب عدة، ولكن في مقدمتها هي مظلوميته التي ألهبت مشاعر من عرفه أو سمع عنه على الرغم من أن هناك الآلاف من أمثال عمر المختار الذين كانوا سدى ولحمة مسيرة الجهاد المقدس، ولا يقلون شأنًا وتضحية من عمر المختار، ولعل الشيخ الشهيد محمد عبد الله البوسيفي يتقدم هؤلاء جميعًا لأنه من الذين رفضوا سياسة المهادنة، وفضّل القتال عقب الانقسامات التي ابتليت به القيادات الجهادية في المنطقة الغربية التي آلت إلى هزيمة على أثرها هاجر الكثير ليثبت الشهيد محمد البوسيفي ويتوجه إلى فزان ليعيد الكرة، ويقاتل ليلقى ربه في معركة المحروقة عام 1913. (2)

ولكن ما أظهر عمر المختار على غيره هو زهده في الدنيا وحطامها حتى وصفه أمير الشعراء أحمد شوقي ببلاغة حين قال:

خيرت فاخترت المبيت على الطوى لم تبن جاهًا أو تلم ثراء

ترك الدنيا فتركته ببهرجتها. وكذلك خلفيته القبلية التي كانت متواضعة في أجواء كان القوم فيها يتفاخرون برصيدهم القبلي، وكذلك كبر سنه وحنكته في التعامل مع الأوضاع المختلفة، فقد

(2) الهاين، مصطفى سعد، أثر العامل الديني في الجهاد الليبي ص 31 - 32.

عُرف عنه كل الخير، ما كرس "الكاريزما" في شخصه وفي حياته، وألهب المشاعر بعد مماته. ظهرت عليه علامات النجابة ورزانة العقل، فاستحوذ على اهتمام ورعاية أستاذه السيد المهدي السنوسي، مما زاده رفعة وسموا، فتناولته الألسن بالثناء بين العلماء ومشايخ القبائل وأعيان المدن، حتى قال فيه السيد المهدي واصفًا إياه: **"لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم"**. فقد وهبه الله تعالى ملكات منها: جشاشة صوته البدوي، وعذوبة لسانه، واختياره للألفاظ المؤثرة في فن المخاطبة، وجاذبية ساحرة لدرجة السيطرة على مستمعيه، وشد انتباههم، فيصفه عدوه اللدود غراتسياني **"وقد ظهرت عليه في هذه الفترة علامات الشدة والصراحة، فكان كلامه قويا كأنه آمر يلقي أوامره لتابعيه"**.

أما "القدسية" فقد تجلت في صورته الدينية وتدينه، فنحن مجتمعات الشرق نقدس الرموز الدينية، وكثير ممن نجل تجد عليهم لحافا دينيا، فالقرآن الكريم أعطاه الوقار الذي يفتقده الكثير في مجتمع يسوده الجهل والظلم، وما زاده رونقًا أصول قبيلته (المنفة) بين قبائل المرابطين ذات المناط الخاص بين مجتمع قبلي في برقة تتصارع فيه الأوزان القبلية الثقيلة من قبائل السعادي، وتتكالب على الكلأ والماء وحتى الهواء. وولائه لدين الله تعالى المتمثل في الطريقة والحركة السنوسية، وهنا تطفح شخصية الرجل كونه شيخ دين وليس شيخ قبيلة، ولم يطلب جاها ولا سلطانا، فأحبّه رفاق الدرب وأحبّهم، حتى أنه قال ذات مرة للمجاهد عبد الرازق العوامي بعد إصابة بالغة في إحدى المعارك، وبعد أن رأى الدماء الغزيرة تنزف من جروحه الغائرة: **"إن استشهادك** (**مخاطبا العوامي**) **اليوم ليس خسارة لأنك تستحق الشهادة في سبيل الله والوطن، ولكن الخسارة التي لا تعوض هي أن تتركني وحيدا لا معتن لي"**.[3] وهذه المحبة المتبادلة بينه وبين رفاقه في الله جعلتهم أوفياء له حتى بعد رحيله، فها هو الشهيد عيسى الوكواك يحاول اغتيال غراتسياني أكثر من *12* مرة انتقامًا لمقتل عمر المختار، وكذلك التواتي عبد الجليل، وحمد المختار، وصالح بومطير، وسعد ارحومه الرقيعي، وعبد الرازق العوامي، يتطوع جميعهم ليكونوا نواة الجيش السنوسي الذي تحالف مع الفيلق الثامن البريطاني ويحملوا شعلة الجهاد إلى الوطن مجددًا بعد هجرة ونفي، وها هو المجاهد عبد الرازق العوامي يثبت مع رفاقه في ما عرف بـ "حصار طبرق" إبان الحرب العالمية الثانية، ويستبسل أمام ذهول الإنجليز

(3)بوشعالة، سعد محمد ، مقالة بعنوان: المجاهد عبد الرازق العوامي دوره في حركة الجهاد، مجلة البحوث التاريخية (يوليه *1989*) ص *21*.

والأستراليين والهنود وغيرهم من جنود بريطانيا العظمى حتى تندحر ألمانيا وحلفائها من جبناء الطليان، لينالوا الشوكة التي طالما انتظروها، حتى تسهل لهم سل الوطن من براثن الاستعمار، ويضعوا بها اللبنات الأولى لدولتهم الفتية على طريق الاستقلال ببركات الشهيد الرمز عمر المختار.

الأمر الآخر أن عمر المختار لم تتلوث أياديه بالفتن وطلب الزعامة التي سالت عليها دماء ليبية ليست بالقليلة، فقد عاش جنديًا عاديًا منذ السنوات الأولى للاحتلال (*11-1922*) ولم يذكر له كثير من المآثر حتى بدايات *1923* حين أصبح قائدًا بعد رحيل كبار القادة عن الوطن حتى استشهاده في*1931*، فالرجل ألهم الناس بثمان سنوات من القتال المستمر، في حين إن رجلا مثل الشيخ المجاهد عبد الحميد العبار قد أطلق الرصاص قبل عمر المختار وبعد عمر المختار، وكان قائدًا وعمدة وما قام به من أجل الوطن أكثر بكثير مما قدمه عمر المختار الذي لم يكتب له طول العمر الذي تمتع به الشيخ عبد الحميد على الرغم من رفقتهما وطلبهما للشهادة في سبيل الله ثم الوطن، والشيخ عبد الحميد استضاف السيد أحمد الشريف ورجاله ثلاثة أشهر، أكرم فيها وفادتهم في ظروف صعبة للغاية، ولعل ما ميز عمر المختار أنه رفض الهجرة إلى دول الجوار، بل ظل ثابتًا على الرغم من معرفته بأنه الأضعف عسكريًا، وأنه لا محال سيلقى ربه قتيلاً عاجلاً أم آجلاً، كما أنه لم يكن معنيًا بالقبيلة وما ترتب عليها من نعرات قبلية وجهوية. فقد كان يستفتي قاضي الدور الشيخ محفوظ الورفلي من رجالات منطقة بني وليد، واصطحب معه في الجبل الأخضر رجال رمضان وسعدون السويحلي الذين عُرفوا بطابور عرب الغرب حبًا في الشهادة، وعصمان الشامي أحد أبناء فلسطين، وأحد القادة الخمسة الذين قض بهم مضاجع الطليان في برقة، وما أعلى كعب عمر المختار عن غيره هو ثقته بنفسه وبرجاله وقضيته مقرونة بمرونة وبمنهجية عملية افتقدها كثير من قادة الجهاد، فعلى الرغم من أن عمر المختار قاتل الطليان باستبسال فلم يجد ضيرًا في التفاوض معهم، حتى أن الدكتور وهبي البوري كتب عن مفاوضات سيدي ارحومة سنة *1929*: **"انتهى الاجتماع (سيدي ارحومة) بصورة ودية وتبادل الطرفان الهدايا فقد وزع بادوليو ساعات ذهبية على مساعدي عمر المختار وأهدى (عمر المختار) جوادا عربيا أصيلا إلي بادوليو وأخذت الصور التذكارية للمفاوضتن يتوسطهم عمر المختار وبادوليو وقد نشرتها مجلة اللطائف المصورة في وقته".** [4]

(4) البوري، وهبي أحمد، عمر المختار و بادوليو أو مفاوضات سيدي رحومة، مجلة «تراث الشعب» العددان: -2 *1* «مسلسل *52-53*»، ص *137-145*، السنة*25* – *2005*.

ولكن ما أشهر عمر المختار وجعله الرمز الذي كان ومازال وسيبقى هو ما قاله فيه فحول الشعر العربي، وفي مقدمتهم أحمد شوقي أمير الشعراء، وحافظ إبراهيم شاعر النيل، وخليل مطران شاعر المهاجر، ومعروف الرصافي أمير القوافي، وغيرهم. وتفاعل العرب والمسلمون بمقتله، سواء في مصر، أو فلسطين، أو تونس، أو سوريا، أو العراق سواء بسنته أو الحوزة الشيعية في الكاظمية... إلخ.

ولذلك اجتمعت في عمر المختار عدة جوانب جعلت الإجماع عليه ميسرًا أكثر من غيره. وسيبقى عمر المختار رمزًا للوطن والأمة من بنغازي، متجسدًا في ضريحه الذي هدم في إحدى الليالي الظلماء قبيل الفجر في أواخر عام *2000*، والتي انطلق عمر المختار منها ليصبح رمزًا لهذه المدينة وللوطن، ففي بنغازي سُجيّ شهيدًا، على الرغم من أنه ليس منها ولم يولد أو حتى يترعرع فيها، ولكن قدره أن يُكرم بالشهادة في ضواحيها، فتعشقه هذه المدينة وأهلها، وهذا ليس غريبًا على بنغازي، فهي "رباية الذايح"، ومدينة الجميع بامتياز، وبالتالي أصبح عمر المختار. الملحمة والضريح، رمزًا لها وللوطن، اللذين يسكناه.

وعليه إن لم يرجع هذا الضريح المهدوم، سيبقى حاجزًا نفسيًا بين القيادات الليبية والشعب الليبي عامة، والبناغزة بصفة خاصة، ولم ولن تجدي أي محاولة لرأب الصدع مادام هذا الرمز "المقدس" مهدمًا بهذه الطريقة المبتذلة، مما يشكل إحدى العوائق الكثيرة التي أشكلت على القيادة الليبية في استرضاء شرائح واسعة من الشعب، ولن يرضى أهلنا عن من أومأ وأوحى وشارك وهدم ورضي بهدم ضريح سيدي عمر المختار، وكذلك من يرفض إعادة بنائه كما كان رمزًا شامخًا للوطن والأمة.